الكتاب الخامس

١- هكذا سارت الأمور هناك، وبما أنه لم يبد في الأفق أي شيء من أي اتجاه يهدد المملكة الرومانية، فقد توجه الامبراطور إلى إحدى القرى الواقعة على مقربة من بيزنطة للاستراحة، وكان اسمها لونغوي Longoi، وبينما هو مقيم هناك، حلّ اليوم الأخير من حياة الامبراطورة [بيرثا] إيرين، وكانت امرأة، حسبما ذكرت من قبل، تفوقت كثيراً على الأخريات في ذلك الحين، بالحكمة،وصواب الرأي، والرحمة تجاه الذين كانوا بحاجة(١)، وكانت أما لابنتين، كانت أكبرهن [ماريا كومينا البروفيروجنيتا Prophyrogenita] قد بقيت حية وأقامت مع أبيها، أما الثانية فقد فارقت الحياة بعد قليل من اكمالها لعامها الرابع.

وبينما كانت تصارع ضد مرضها، عاش الطفل مع ذلك، ومهما يكن من أمر فقد استدعت أوضاع الغرب الامبراطور إليها، وقد خلف الامبراطور مسائل بيته الخاصة خلفه، وزحف ليعالج المشاكل هناك، ذلك أنه سرت وقتذاك أخبار أفادت أن فردريك ملك الألمان، كان قد حرك جميع شعبه لمهاجمة الأراضي الرومانية، ولهذا السبب، وبسبب، انقضاء أجل غيزا ملك هنغاريا(٢)، ذهب إلى ساردیكا، وقد تأخر هناك مافيه الكفاية، لأنه أولى اهتماماً كبيراً مسألة السيادة في هنغاريا، ولأن ما روي عن الألمان لم يكن يقيناً وأصيلاً بعد، ودعونا الآن نبين لماذا رغب الامبراطور في الادعاء بحق له في حكم هنغاريا، فلقد كان لغيزا أخوين هما: لازلو Laszlo ، وستيفن [أسطفان]، وقد اختصما معه، وأنا لاأعرف لماذا أصبحا مكروهين كثيراً منه، وبعد نفي طويل، لأحدهما في مكان وللآخر في مكان آخر، توصلا إلى الامبراطور، وحضرا بين يديه، وقد

تزوج ستيفن ابنة أخي الامبراطور، ماريا ابنة اسحق السيباتوكراتور، التي كانت —كما ذكرت— فائقة الجمال، وبقي الآخر بدون زواج، وعندما توفي غيزا استدعى قانون العدالة، واحداً من الأخوين إلى السلطة (لأن القانون بين الهنغار قضى بذهاب التاج دوماً إلى الأخوة الأحياء) وكان الامبراطور راغباً بشدة في اعادتها إلى أرض أجدادهما، ذلك أن غيزا قام قبل وفاته بتجاوز العادة الوطنية، وحول المنصب الملكي إلى ابنه، وكان الهنغار من بعض الجوانب يدينون بهذا القانون، وخائفين من جانب آخر من قدوم الامبراطور، فانتزعوا المنصب من ستيفن ابن غيزا [اسطفان الثالث] ومنحوه إلى لازلو [الثاني] الذي كان واحدا من الأخوين، وأعطوا ستيفن، وأعني به الأخ الأكبر، منصب أوروم Urum ، وكان معنى اسم هذا المنصب بين الهنغار أن صاحبه سيكون الخليفة في تولي السلطة الملكية(٣).

٢- هكذا سارت الأمور بالنسبة للأخوين، ووصلت المسائل إلى خواتمها، وإثر هذا تابع الامبراطور زحفه إلى فيلبه، وهي مدينة مقدونية، وكان هدفه إنهاء المشاكل في صربيا، ذلك أن بريميسلاف، الذي كان يحكم البلاد آنذاك، كان —كما سلف بي القول من قبل— قد حدثته نفسه بالثورة، لأنه يمتلك روح الاستقلال، وأنه بعدما أوشك أن يفقد سلطانه لهذا السبب، وذلك على يدي الامبراطور، رأى الرحمة مجدداً أمام ناظريه، وبقي في [منصبه] نفسه(٤)، ثم إنه لم يقم الآن وزناً لاتفاقاته وأيمانه، وتورط ثانية بالعصيان، وقام الامبراطور الذي فهم الرجل، بتنحيته من منصبه، وأقام مكانه أخاه بلوس Belus ، وعطفاً منه على مصيره، قام بنفي بريميسلاف، حتى لايحدث ضرراً مرة ثانية، غير أنه أعطاه منطقة خصبة جداً، وجيدة للرعي من قبل الحيوانات، وبعدما عاش بلوس في منصبه لوقت قصير ممجداً، تخلى عن الملك، وهجر أرض آبائه، وذهب إلى هنغاريا، ولقد عاش هناك لوقت طويل، غادر بعده

هذه الحياة، وأمر الامبراطور باستدعاء آخر الاخوة الذي كان يدعى ديسا Desa، وكان يحكم منطقة دندرا، وهي منطقة خصبة ومكتظة بالسكان، وتقع على مقربة من نايسوس(٥) Naissos ، وبعدما تلقى مانويل منه يمين الولاء، والوعد أنه سيحتفظ طوال حياته بنقاء بشرط الطاعة، وذلك بالاضافة إلى تخليه نهائياً عن دندرا لصالح الرومان، وهي منطقة —كما ذكرت— كانت خصبة، قام بمنحه لقب «زوبان العظيم».

٣- وحوالي هذا الوقت [١١٦٢] حدث أيضاً أن جاء السلطان قلج أرسلان(٦) [الثاني] متطوعاً وباختياره إلى بيزنطة ليتوسط لدى الامبراطور بشأن مسائل مفيدة له، وهذا شيء هائل، وفوق العادة رائع، فمثله لاأعرف أنه حدث للرومان من قبل، فهل تقدم لأحد من بين الأباطرة العظام أن ظهر رجل في بلاط الرومان على شكل عبد، مع أنه يحكم أراضي واسعة شاسعة، وهو سيد لعدد كبير من القبائل، ولكي أصف الاحتفالات والرسوم التي تمت لمن يود أن يسمع:

فقد نصبت دكة رائعة، ووضع عليها عرش، ارتفع ارتفاعاً كبيراً عن الأرض، وكان مشهداً جديراً بالملاحظة، ولقد صنع كل شيء فيه من الذهب، لكن كميات كبيرة من أحجار الياقوت والزفير كانت مرصوفة على جميع أطرافه، كما أنه لم يكن بإمكان أي انسان احصاء عدد اللآلىء، فقد وضع عدد كاف منها حول كل جوهرة، وكانت مثبتة في الفراغات المناسبة، فقد كانوا ذوي استدارة كاملة، ويشعون اشعاعاً أشد بياضاً من الثلج، وكان العرش مليئاً بمثل هذه المشعات، وتفوق بالروعة القسم الأعلى الذي يمتد فوق الرأس، عن البقية، بقدر مايتفوق الرأس على بقية أعضاء الجسد المرتبطة به، وجلس عليه الامبراطور، وملأ المكان بالفخامة لحسن توزيع جسده، وقد التف بثوب أرجواني، وكان شيئاً رائعاً، وقد رصع الثوب من الرأس حتى الأسفل بالياقوت واللآلىء المشعة، لكن في الحقيقة ليس بدون نظام، وإنما طرّز ببراعة حرفية رائعة، فقد رسم الفن

على الثوب منظراً أصيلاً لمرج جميل، وتدلى من رقبته إلى صدره سلسلة ذهبية نظمت جواهر تميزت في الحجم والألوان، وكان فيها ياقوتة لونها وردي، لكنها أخذت شكلاً يشبه شكل تفاحة، وأرى إنه من غير الممكن الكتابة عن الترصيعات التي كانت فوق رأسه، ووقف على كل طرف من طرفي العرش —تبعاً للعادة— فريقاً من الرسميين، انتظم وفقاً للأسرة والرتبة فذلك حدد مكان كل واحد منهم، وعلى هذه الصورة كان فريق الاستقبال الامبراطوري الرسمي:

وعندما وصل قلج—أرسلان إلى وسط هذا الفريق، كانت الدهشة مستولية عليه، ومع أن الامبراطور قد حثه على الجلوس، فقد تمسك في البداية بالوقوف وتشبث بذلك، لكنه وقد رأى الامبراطور يتابع الضغط عليه، جلس على مقعد منخفض،كان متواضعاً جداً إلى جانب العرش المرتفع، وبعدما قال وسمع ماهو مناسب غادر إلى المقر المعين لسكناه داخل القصر.

وبما أن الامبراطور قد ازداد عظمة وعلت مكانته بسبب نجاحاته، فقد أعدّ العدة لإقامة استعراض موكب نصر من القلعة نفسها إلى كنيسة آيا صوفيا الواسعة الشهرة، وكذلك ليسير معه في الاستعراض، ومع هذا لم ينجز ماعزم عليه، لأن [البطريرك] لوقا(٧)، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن المسائل اللاهوتية عارض هذا العمل، قائلاً لايجوز للرجال غير الأتقياء المرور في ثياب كهنوتية مكرسة ومزينة، ثم إن شيئاً آخر قد حدث ليحول دون تنفيذ المسألة، ففي الهزيع الأخير من الليل هزّ الأرض فجأة زلزال عظيم، وهنا لاحظ البيزنطيون أن رأي لوقا قد تمّ تجاهله وتخطيه، لذلك أعلنوا أن المشروع مضاد لارادة الرب، ذلك أن الناس يولون بشكل طبيعي اهتماماً إلى المسائل الحاضرة، ولايبحثون في أي شيء بعيد المتناول، وعلى كل حال أعطت خاتمة المسألة شرحاً لما حدث، لأنه بعد مضي كثير من السنين أصبح قلج—أرسلان قليل الاهتمام بارتباطاته

نحو الامبراطور، مما سبب قيام الرومان بالهجوم على الأتراك بكامل القوى، ولبعض الصدف وقع الجيش في مشاكل ومصاعب أرضية، ففقد كثيراً من الارستقراطية، وبات على شفير المعاناة من مأساة عظيمة، لولا أن الامبراطور كان موجوداً، وقد نظر إليه على أنه كان متفوقاً في فن الحرب براعة على بني البشر(٨)، لكن، كما سلف وقلت من قبل: هذه الأمور ستتم روايتها فيما بعد من قبلي، وقد تم اصطحابه إلى القصر الواقع إلى الجنوب [كذا] من المدينة، وقد استقبله الامبراطور بمائدة رائعة، كما وعامله معاملة ودودة تامة(٩)، ثم أغراه بسباق للخيل، ووضع تبعاً للعادة النار في بعض القوارب والمشاعل التي زودت بسائل قابل للاحتراق، وقد أدهش هذا الرجل تماماً، لاسيما منظر ميدان السباق، فهناك تظهر بشكل خاص عظمة المدن، وبعدما أمضى قلج—أرسلان الوقت الكافي في بيزنطة، وتولى تأكيد الاتفاقات الماضية بأيمان اضافية، عاد إلى بلاده، وكانت شروط الاتفاق كما يلي:

أن يكون خلال حياته كلها معادياً للذين يرعون العداوة ضد الامبراطور، لكن أن يكون صديقاً للذين يتخذون موقفاً معاكساً، فهؤلاء يحظون باحسانه، وسيعطي إلى الامبراطور من بين المدن التي استولى عليها المدن الأعظم والأكثر أهمية، ولايحق له إبرام أي اتفاق سلام مع واحد من الأعداء مالم يكن ذلك بتوجيه من الامبراطور، ولسوف يقاتل بمثابة حليف مع الرومان بناءً على طلب، وسيقدم مع قواته كلها للمشاركة بالحرب سواء أكان الصراع صراعاً شرقياً أم غربياً، ولن يسمح لأي واحد كان يخضع لسلطانه، لاسيما الذين يعيشون ببراعة من أعمال اللصوصية ويدعون بالعادة باسم التركمان، بالقيام بالحاق أي أذي مهما كان نوعه بالأراضي الرومانية، ولن يمرر ذلك بدون عقوبة، وقد وافق على هذه الأشياء، وتعهد الذين رافقوه من الأعيان، أنه إذا ماحاول عدم مراعاتها، سيمنعونه من محاولة ذلك بكل ماأوتوه من قوة.

وكان هذا ماتحقق في بيزنطة، وقد عبرت الأخبار [لذلك] من قبل من أوروبا إلى آسيا، وارتأى قادة القبائل هناك أنه لن يكون من صالحهم إذا ماتعامل الامبراطور مع السلطان، فبعثوا برسلهم يرجون أن يتصالحوا مع السلطان، واستمع إليهم مانويل بروح الصداقة، وقد ترك كل شيء لاختيار السلطان، فبعث بهم إليه، وكان كما سلفت الاشارة مقيماً في القصر، وما ان مثلوا أمامه للمناقشة، حتى سألوه برجاء أن يتخلى عن عداوته نحوهم، وأقنعوه أن يتوسط لصالحهم لدى الامبراطور، وتبعاً لذلك جلب مانويل هؤلاء المستعطفين إلى جانبه، واتخذهم أصدقاء، ومنذ ذلك الحين استقر السلام في مملكة الرومان.

٤- وبما أن الامبراطورة [بيرثا] —ايرين كانت قد غادرت هذه الحياة، والامبراطور لم يكن بعد قد صار أباً لطفل ذكر، لذلك فكر آنذاك بزواج ثانٍ، وكانت هناك فتاة في طرابلس في فينيقية [لبنان]، لاتينية المولد، لكن ذات جمال متميز، لذلك أرسل لخطبتها [١١٦٠] السيباتوس جون كونتوستيفانوس وايطالي اسمه ثيوفيلاكت Theo-phylact ، الذي أطلق عليه رجاله لقب اكسوبيتوس(١٠) Ex ou-bitos ، ورأى الرجلان الفتاة وأعجبا بجمالها، وبما أنه لم يكن هناك مايعيقهما مطلقاً، قاما بدون انتظار بالصعود إلى ظهر الغليون للسفر بها، وحدث —على كل حال— أنهم وهم على نية الاقلاع والسفر، حلّ مرض شديد بالفتاة، وباتت في الحقيقة بوضع خطير جداً، ولذلك أخذا يؤجلان سفرهما ومغادرتهما كل يوم إلى الغد، وأمضيا الأيام بدون عمل، ينتظران أن تتحسن حال الفتاة وتتحرر قليلاً من الوجع حتى يمكن توقع المغادرة، لكن لحكمة خفية كانت المعاناة تعاودها من جديد، وعندما اضطجعت كان جسدها يرتجف ويرتعد بشكل شديد، فقد استبدت الحمى بها، وتبع ذلك فقدانها وتلاشيها، فالبريق الذي علا طلعتها، والذي أشرق جمالاً، مالبث أن تغير إلى ظلام، وكان كل من يراها يبكي

حزناً على هذه النضارة التي ذوت في غير وقتها، وهكذا كانت الفتاة في حالة سيئة، وهي ماتزال مقيمة في بلدها وقبل أن تصعد ظهر السفينة وتبتعد ولو قليلاً عن طرابلس، حلّ بها فيضان مضاعف هناك، وهكذا بقيت السفينة مجدداً في طرابلس، وجاءها هناك المزيد من الأمراض، ولم تغادرها البتة، ونظراً لتكرار حدوث هذا الأمر، سبب ذلك قيام كونتوستيفانوس بتفحص القضية وإعادة النظر بها بدون توقف، وفي حزنه وأساه كان يستبدل الفكرة بواحدة أخرى بدون توقف، وأخيراً دخل إلى إحدى الكنائس هناك، واستخار هل من المفيد أن تخطب الفتاة إلى الامبراطور، وأجابه الهاتف المقدس بقوله: «العرس جاهز، لكن الذين تمت دعوتهم لايستحقون الدخول»(١١)، وعندما سمع هذا، فهم المعنى، لأن أقاويل راجت هناك، وصلت مسامعها، أفادت أن الفتاة ولدت من زواج غير شرعي، وهو شيء يمكن أن يسبب العار بشكل خاص، لذلك تخلى عن المسألة وانطلق عائداً إلى بيزنطة(١٢).

وكان لأرناط أمير أنطاكية ابنتين كانتا آنذاك فائقتي الجمال، وفي سبيل رؤيتهما أرسل الامبراطور باسيل الذي كنيته كاماتيروس Kamateros والذي كان آنذاك قائداً للفريجيين [Akolouthos]، وعندما وصل أنطاكية مسرعاً، وجدهما معاً جميلتين، غير أن ماري بدت له الأكثر جمالاً، وتبرهن أن استقصاء هذا الرسول كان صحيحاً، واعتاد البيزنطيون في أيامنا على القول، أنهم لم يعرفوا مثل هذا الجمال من قبل، لكن هذا حدث فيما بعد، وبما أن القرار آثر ماري، فقد علم الامبراطور بذلك،فبعث بأعضاء من الأرستقراطية إلى أنطاكية للقيام بخطبة الفتاة له، هم: ألكسيوس [كومينوس] ابن ابنة الامبراطور ألكسيوس الأول، وكان آنذاك هو الدوق العظيم، ونقفور برنيوس، وكان من أنسباء الامبراطور من خلال ابنة أخيه، وقد أصبح سيباتوس، وكان بينهم أيضاً أندرونيكوس كاماتيروس، الذي شغل آنذاك منصب إبأرك(١٣)

Eparch ، وكان أيضا من أقرباء الامبراطور، وقد عدّ جديراً لأن يصبح سيباستوس، ولقد رأوها، وأعجبوا بها أيما اعجاب، وصعدوا ظهر غليون، واصطحبوها بكل حفاوة إلى بيزنطة.

وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر أبيلايوس Apellaios ، الذي يطلق عليه الذي يتكلمون باللاتينية اسم كانون الأول [١١٦١]، وبعدما نقلت بشكل رائع إلى كنيسة آيا صوفيا الواسعة الشهرة، تم عقد قرانها هناك، وكان مع لوقا الذي كان على رأس كنيسة القسطنطينية، صفرونيوس بطريرك الاسكندرية، وأثناسيوس بطريرك أنطاكية [ثيوبولس]، وقد وضع يديه عليهما، حسبما كانت العادة آنذاك بالنسبة للمسيحيين، وبعدما أعلنها الامبراطور أوغسطه عاد إلى القصر، واحتفل هناك في مقامه العالي بولائم رائعة، وأقام الموائد للشعب في جميع طرقات المدينة، ودعا في اليوم التالي البطاركة إلى مائدته، وبعدما رحب بكل واحد منهم بوساطة كميات هائلة من الذهب، ودعهم عائدين، وفي الحقيقة قام قبل صنعه أي شيء آخر بإهداء الكنيسة مائة وزنة من الذهب، وبعد وقت قصير متّع الشعب بسباق للخيل، ورغب في عدم إهمال أي شيء يجلب المسرة(١٤).

٥- وكان هذا ماحدث في بيزنطة، وحدث أنه بعدما توفي لازلو صاحب هنغاريا [١٤-كانون ثاني١١٦٢]، أن أصبح أخوه متملكاً للسلطة باسم [اسطفان الرابع]، وقد بدا عبوساً وظالماً بشكل منقطع النظير بالنسبة للشخصيات الرئيسية، لذلك أبغضه الهنغار كثيراً وازدروه، وكانوا على وشك خلعه وانتزاع السلطة منه، واضطرب ستيفن أمام هذا الحال، فتوجه ثانية يستنجد بالامبراطور، وقام الامبراطور عندما حلّ الاعتدال الربيعي [ربيع١١٦٢] بالمبادرة مسرعاً نحو فيلبه، وقد مكث هناك مع الجزء الأعظم من الجيش الروماني، وعهد بقيادة قطعة من الجيش إلى ابن أخيه ألكسيوس كونتوستيفانوس، وبعث بها إلى هنغاريا،

وحدث —على كل حال— في هذا الوقت أن اعتقد ستيفن أنه تصالح مع الهنغار وبالتالي ليس بحاجة لهذه القطعة، ولهذا السبب عاد الجيش الروماني إلى وطنه، لكن وقع في ذلك الحين أن ثار الهنغار ثانية ضد ستيفن، واتهموه بأشياء كثيرة، وأصروا على أن الدولة الهنغارية قد تدمرت تماماً في ظلّ حكمه، ولهذا حشد الامبراطور جيشاً من جديد، غير أن ستيفن الذي شعر بالمخاطر من البداية، جاء لاجئاً إلى إحدى المدن القريبة من الدانوب، والتي كانت خاضعة منذ وقت طويل مضى لحكم الامبراطور، وتابع هذا السير إلى سرديكا، وهناك التقى الامبراطور، وقد تأثر الامبراطور كثيراً بما حدث، وعطف على الرجل لما نزل به، فأعطاه المال، وزوده بما يكفي من قوات، تولت اصطحابه عائداً إلى عرش آبائه، وقاد هذه القوات ألكسيوس كونتوستيفانوس، المتقدم الذكر، وسار الامبراطور خلفها، وعلى بعد قليل منها.

وعندما وصل نيسوس، ورد إلى ذهنه خطة وهو معسكر هناك، في أن يقوم خلال جوازه بحلّ المشاكل في الصرب، لأن ذلك المكان كان على الطريق إلى كل من هنغاريا والصرب، ولابدّ للانسان من الدخول من احداهن إلى الأخرى من هناك، فقد كان ديسا، الذي كان وقتذاك يحكم الصرب كتقدمة له من الامبراطور، كان ما أن أصبح مسؤولاً عن البلاد قد نسي حتى الاتفاق، وادعى مجدداً الحق في ملكية منطقة دندرا، فقد ثار ضد السلطة الرومانية، وكتب إلى الألمان، عازماً على أن يقرن نفسه بعروس من هناك، وفعل كل شيء كان مضاداً لرغبات الرومان، ثم انه عندما استدعاه الامبراطور للالتحاق به في الحملة ضد الهنغار، ظهر نائياً، وعنيداً، معللاً ومدافعاً، بآمال عظيمة، وثابر على تقديم الوعود بالوصول في المستقبل، ولذلك عندما وصل الامبراطور إلى نيسوس، حيث هناك طريقان، يقود أحدهما إلى الصرب، والآخر إلى الدانوب وهنغاريا، أقام معسكره في وسط الطريق بينهما، ولدى شعور ديسا بالخطر الذي حام

فوقه، جمع ماحضر لديه من عساكر، ووصل إلى المعسكر الروماني، ولقد عامله الامبراطور بعطف، وأضفى عليه من التشريف كل ماهو لائق.

وعلى كل حال، مامن إثم أعظم عاراً من لسان غير ملجوم، لأنه ما ان تصور ديسا أنه مامن أذى نجم عن حماقته السالفة، حتى صعّد غاياته وقرر الاقدام على إحداث ضرر إلى الرومان أعظم من ذي قبل، ومع هذا فقد أبقى المؤامرة سرية، وهكذا يغدو بالعادة افتراض الجودة في أعظم الناس إثماً، العمل المادي لكل جرائم عظيمة، لأنه جاء بعد وقت قصير رسل إلى الامبراطور من لدن أمة الهنغار، لكن بالصدفة حدث أن التقوا بديسا، وقد سئل كالعادة من قبلهم كيف سارت أموره، فأجابهم بدون تحفظ، بأن أموره سارت بشكل جيد، وهي تستحق تقديم الشكر له من قبل ملكهم الذي سماه بشكل مكشوف «المولى»، ولدى معرفة الامبراطور بذلك، استدعاه إلى المحاكمة بدون تردد، وعندما أدين، بما أن التهم ضده وازت المخففات وجهاً لوجه وأظهرت خيانة الرجل، قرر مانويل التحفظ عليه بأمان بدون إهانته، وقد أحاط خيمته بخندق، وأبقاه مطوقاً بشكل متواصل، وهكذا منه نال المكان اسمه وهو معسكر ديسا (لأن العوام هكذا أطلقوا بالدارجة هذه التسمية على الخندق) وأرسله بعد أمد قصير إلى بيزنطة، واحتفظ به أسيراً في القصر(١٥).

كان هذا ماحدث هناك، ورأى الامبراطور الذي كان يتباحث مع الرسل الذين وصلوا من عند الهنغار، أنهم لم يقدموا شيئاً أصيلاً، لذلك أمرهم بمغادرة المعسكر الروماني على الفور والعودة على الطريق الذي جاءوا عليه، وهكذا غادروا المكان، وعندما وصل الامبراطور إلى مدينة بلغراد، عسكر هناك، وهي مدينة —كما سلف القول— قد قام الجيش الروماني ببنائها، وذلك بعدما هدموا زيغمنون Zeugminon ، وقد شاركهم في عملهم ذلك عدد من الهنغار، وكانت في الحقيقة لعبة حظ،

تهزأ باستمرار، نحو الشؤون البشرية، ويمكن للمرء أن يضحك نحو الذين أزالوا الأبنية، وهم يرون المعمرين ثانية، وأعتقد أنه من هذه الأشياء بات استخدام كلمة حظ شائعاً جداً بين الناس، وعندما يكونوا غير قادرين على فهم الأسباب لأعمال التدبير، وعلى أساس مابدا لهم صحيحاً، نراهم يعزون المصائب إلى الحظ، ولندع كل واحد يفكر ويتكلم حسبما يرضيه حول هذا، ولكن دعوا الرواية تنعطف نحو مسألتها المبكرة.

وعندما وصل الامبراطور إلى بلغراد، ولاحظ أنه من غير الممكن بالنسبة لستيفن [اسطفان الرابع] أن يحكم بلاد الهنغار (لأنهم كانوا قد سارعوا إلى تنصيب ستيفن ابن غيزا [اسطفان الثالث] ثانية) انصرف نحو شيء آخر، وكما تقدم الذكر، كان يرغب في أن يستحوذ على هنغاريا، التي قامت وسط الأمم الغربية، ولذلك عزم على أن يربط بالزواج بيلا الذي كان ابن غيزا تاليا لستيفن، بابنته ماريا، فأرسل إلى هنغاريا جورج الذي كان باليولوغوس Palaiolagos من حيث المولد، والذي كان آنذاك يتولى إمرة الحرس الامبراطوري الأجنبي، وكان قد ارتقى إلى مرتبة سيباستوي Sebastoi ، وأمره أن يبحث في مسألة رباط الزواج، ثم أخذ هو نفسه الطريق مجدداً نحو بيزنطة، وبعدما ناقش الهنغار المسألة مع باليولوغوس، سلموه مسرعين بيلا، وبكل سرور عينوا له الأراضي التي كان والده قد خصصها حصة له عندما كان على قيد الحياة، وحمله باليولوغوس معه، ومعه الاتفاقية المذكورة، وجاء إلى بيزنطة، ونظر الامبراطور بإيثار نحو القضايا المتعلقة برباط الزواج، وأعيدت تسمية الشاب، فبات اسمه ألكسيوس، وبات ينادى بلقب «دسبوتس Despotos» [أي سيد](١٦).

٦- وهكذا توافق وصول بيلا إلى بيزنطة مع هذه البداية في الافتراض أن كل شيء كان يسير على مايرام في الغرب، لذلك أولى الامبراطور بعد

اهتمامه إلى آسيا، وبعدما أثيربما حدث، تحول عنها بسبب الشؤون الغربية، والذي دعاه للتوجه إلى آسيا هو أن نور الدين، الذي كان حاكماً لكل من حلب ودمشق، وكلتاهما من أهم مدن سورية، قد ابتسم له الحظ وكان لصالحه، فحكم عدداً كبيراً من المدن الأخرى التي شربت ماء نهر الفرات، كما واستولى على كثير من المناطق التي لايستهان بها، ووقع في قبضته عدد عظيم من الأمراء هناك، وقد احتفظ ببعضهم أسرى، وكان بينهم جوسلين حاكم الرها(١٧)، وقتل آخرين في المعركة، ونذكر من هؤلاء: ريموند أوف بواتو، الذي قدمنا حوله مادة كافية في الروايات المتقدمة، وكان رجلاً يشبه الهرقلات الأسطوريين في القوة والقدرة، وكذلك بلدوين الذي كان وقتذاك حاكماً لمرعش، وتابع تقدمه، فاصطدم في القتال مع دوق كليكية، الذي كان اسمه قسطنطين، وكنيته، كالامانوس Kalamanos الأصغر(١٨)، وكان بهي الطلعة، وفعّالاً في الشؤون الحربية، وكان في البداية قد هزم هزيمة ساحقة على يد الأصغر، ووقع في مصيبة لايمكن النهوض منها، ثم حدث أن أسره، وأسر أرناط أمير أنطاكية، كما وكان بينهم أيضاً حاكم طرابلس الفينيقية، وكان قسطنطين عندما ربح منه المعركة، لم يكبح نفسه، بل اندفع بشكل أحمق، وانخرط بدون توفيق في أعمال المطاردة، فكان أن وقع بالأسر، وهكذا هوت مصالح الرومان [آب١١٦٤] (١٩)، وهزم نور الدين أيضاً طوروس في المعركة، وعلل نفسه بآمال الاستيلاء فوراً على أنطاكية، ولهذا كله كان الامبراطور في البداية قلقاً تجاه ماوقع، وعزم على الجواز إلى آسيا، واغتنام الفرصة، وعندما كان على نية الاسراع إلى هناك مع جميع قواته، حدث أن منعته مشاكل الغرب من جديد.

وبالنسبة للملك الجديد [اسطفان الثالث] قام مجدداً باغتصاب ميراث بيلا، ثم عمد إلى خرق المعاهدة علناً، يضاف إلى هذا أن ستيفن [اسطفان الرابع]، الذي سلف للهنغار أن طردوه من منصبه، استطاع أن

يتسلل عائداً إلى هنغاريا من خلال أنخيلوس Anchialos ، وعزم على استرداد السلطة [١١٦٣]، وتولى السعي لذلك بشكل سري، لكن باندفاع بدلاً من أخذ الحيطة، وربح في أثناء تجواله إلى جانبه بعض الهنغار، وعندما علم ستيفن [الثالث] بهذا اندفع نحوه ومعه جميع جيشه، ولهذا بعث الامبراطور إلى كليكية جيشاً كافياً للدفاع عنها، وقام بالزحف عائداً إلى الدانوب، وعبر السافا، ومركز قواته مقابل تيتليون Ti-telion [تيتل على التيسا Tisa] (٢٠)، عازماً على استرداد ميراث الأجداد إلى بيلا، ولينقذ ستيفن [الرابع] من المصاعب التي تواجهه، فقد كانت قواته تتبدد وتتشتت، وكان بالحقيقة في وضع صعب، بسبب أن الهنغار كانوا في كل مناسبة ذاهبين للالتحاق بالملك [اسطفان الثالث]، وأرسل الامبراطور أندرونيكوس بن كونتوستيفانوس، الذي سيصبح بعد وقت قليل دوقاً أعظم، مع جيش، فتولى انقاذ ستيفن من وسط المصاعب.

وانطلق الامبراطور من تيتليون مع قواته كلها، وتابع زحفه إلى الأمام، أما بالنسبة لستيفن [الثالث] الذي اغتصب السلطة، فقد وجد نفسه غير قادر على التصادم مع الامبراطور بقوات متكافئة، ولهذا زحف أولاً مع القوات المحيطة به إلى مكان ما وقع في الجزء الأقصى من هنغاريا، ثم إنه بعدما قام بجمع قوات حليفة، بادر مسرعاً للتصدي للرومان، ووصل الامبراطور إلى مكان يدعى بيتريكون Petrikon [بيتروفارديـــن ovardin Petr؟]، وعسكر هناك، وهذا المكان هو الحد الأقصى للوصول إلى داخل هنغاريا، وبعدما وصل إلى هناك، كتب مايلي إلى ستيفن [الثالث]:

«لقد قدمنا يابني لالإثارة الحرب ضد الهنغار، بل لاستعادة أرض بيلا —أخوك— وهو ليس شيئاً انتزعناه بقوتنا، بل إنه مامنحته أنت وأبوك من قبل، منذ زمن طويل، وكذلك لننقذ من المصاعب عمك ستيفن،

المرتبط برباط الزواج بجلالتنا، وإذا كان تبعاً لارادتك الحرة أصبح بيلا صهرنا، وهو شيء كنتُ قد وافقت عليه من قبل، لماذا سارعت إلى التخلي عن صداقتنا، بعدم قيامك باعطائه أرضه؟ وإذا كنت تعارض الزواج وشيئاً آخر يبدو بالنسبة لك صحيحاً فيما يتعلق به، اعلم اننا سنمتنع عن الضغط عليك أكثر».

٧- كان هذا ماكتبه الامبراطور، أما الآخر، فكان —كما ذكرت— قد حشد قواتاً حليفة من الألمان والسيزيين من تاوروس [تاوروس سيز أوروس]، وتعايش مع أمة التشيك منذ أن قدم إلى عنده حاكمها ومعه جميع جيشه، وهذا الحاكم هو الذي ذهب بالحملة مع كونراد ملك ألمانيا، عندما —كما حكيت من قبل— انطلق نحو آسيا، ولهذا السبب أصبح ملكاً تحت سلطانه.

ومع هذا فكلاهما قد غشا: الذي منح اللقب والذي قدم الشكر، لأن لقب امبراطورية كان قد اختفى من روما منذ زمن طويل مضى، ولأن منح السلطة قد انتقل —بعد أغسطس الذي يدعى أغستولوس، وذلك اشارة إلى سنه الصغير عندما وصل إلى السلطة— إلى أودوفاكار Odov-akar ثم إلى ثيودورك حاكم القوط، وكانا معاً طاغيتين [أي مغتصبين]، ولأن ثيودورك دعا نفسه طوال حياته ملكاً وليس امبراطوراً، وذلك حسبما روى بروكوبيوس، وتعيش روما منذ أيام ثيودورك، لابل قبل ذلك بقليل، حتى الآن في حالة ثورة، مع أنها استردت مراراً من قبل بليزاريوس ونرسيس، قائدا الرومان في أيام جستنيان، ثم انها تحولت إلى مرتبة ليست أقل من العبودية تحت ظل الطغاة البرابرة، الذين حملوا ألقاب ملوك في مضاهاة لثيودورك الملك الأول والطاغية، وبما أنهم لم يدعوا المقام الأعلى، وهو مقام الامبراطورية، من أين يحق لهم الاقتراح بالنسبة لأنفسهم مناصب [الملكية] التي —كما سلف وقلت— صدرت عن الجلالة الامبراطورية بمثابة تمييز(٢١).

ولم يكن هـذا وحده كـافياً بالنسبـة لهم، فاغتصبـوا —مع أنـه لايليق بهم— أعلى منزلة للسلطـة وأضفوا على أنفسهم لقب الامبراطـور، وتحتاج هذه الحماقة وفقدان العقل الشرح:

أسرعوا الآن بالاعلان أن الامبراطورية في بيـزنطة تختلف عن تلك التي في رومـا، ولدى تفحصي لهذا، تسبـب ذلك لي مـراراً بالبكـاء، فلقد بيـع الحكم في روما، مثل قطعة مـن المتاع، إلى البرابرة، وفي الحقيقة إلى العبيد، ولهذا إنهالاتستحق أسقفاً، وأكثر من هذا إنها لاتستحق حاكماً، لأن الذي صعـد إلى عظمة الامبراطـور ركض على الأقـدام بشكل غير لائق بنفسـه مماشاة لـلأسقـف الراكـب، وكـان مثل سـائسـه(٢٢)، غير أن الآخريـن يـدعونـه امبراطـور، مقـدرين أنـه كـان مسـاوياً وبـالـدرجـة نفسها مـع البازيلوس [الامبراطور البيزنطي].

[وبالنسبـة للبابا:] كيـف لك ياسيدي النبيـل، ومن أين وقـع لك أن تعامـل امبراطور الـرومان مثـل سائس؟ لكنـك لاتعرف مـن أين، وأنـك أسـأت إلى لقب أسقـف، في حين زيـف هـو [الامبراطور الغـربي] لقـب امبراطور، لأنـك إذا لم توافـق على أن عرش الامبراطوريـة هو في بيـزنطة، وهو عرش روما، من أين أصبحت مستحوذاً على مرتبة بابا؟

هنـاك قسطنطين واحد فقـط، وهو المسيحـي الأول بين الأبـاطرة، ولـه سائغ منحه هذا اللقب، كيف يمكنك أن تـرحب بجزء منه بايثار، وأعني بذلـك العرش البابـوي، وغاية العظمـة، لكن تـرفض قبول بقيـة السيادة الامبراطوريـة، عليك إمـا أن ترضـى بكلا النـاحيتين أو ترفـض النواحـي الأخرى أيضاً.

غير أنه يقول:

أنـا يمكنني أن أعين أبـاطرة، نعـم، هـذا فيما يتعلق بـوضع الأيـدي،

وكذلك فيما يتعلق بالتكريس، فهذه مسائل روحية، لكن لافيما يتعلق بمنح امبراطوريات واختراع مثل هذه الأشياء، ومادام بإمكانك تحويل الامبراطوريات، لماذا لاتقوم أنت نفسك بتحويل الامبراطورية القائمة في روما؟ لكن عندما يرسم واحد آخر شيئاً ما، على الذي وقتها يمتلك الكنيسة بينكم أن يعتاد رغم ارادته على احترام مراسيمه(٢٣)، لقد وقعت —على كل حال— في مصيدتك، وتفعل بشكل مُقنع أشياء متعارضة، هؤلاء الذين لم ترض قبول طلبهم واستقبالهم، منذ وقت قصير، عندما كنت تتصرف بشكل صحيح نحو الامبراطور، لأن ذلك لم يكن ممكناً، لكن أن تدرجهم الآن بين سواسك، لاأعرف كيف ذلك، ولا كيف تتقبلهم بمثابة أباطرة، إنك تدرك أن الذي بوساطته ومن خلاله، ومنه ادعيت العرش البابوي، لايمكن أن يُطابق مع البربري، والطاغية والعبد، إنه يقول: أنا أرغمت، إنني تحت الضغط، إن عذرك ليس مسوغاً، لقد تخليت من قبل، لكن ليس قبل وقت طويل مضى، عن هذه الأشياء إلى الامبراطور مانويل، وإذا ما رغبت بانكار ذلك، فإن الوثائق التي تلقت توقيعك في الأسفل تعلن ذلك، وفي الحقيقة إن القضية هي مزحة، وخدعة سخيفة ودنيئة، وحسب طريقة الذي يراهن على مضي الوقت، لقد لزمت بخط تبدلات الحظ(٢٤)، ولقد تشعبنا مع هذه المسألة أكثر مما يتوافق مع الروايات التاريخية، لذلك لندع الحكاية تعود إلى مسألتها السالفة.

٨- بعدما قام ستيفن [الثالث] هكذا بالاستعداد، أسرع بالزحف ضد الرومان [١١٦٤]،وعندما كان الامبراطور في داخل الأراضي الهنغارية، جاء الناس الذين كانوا هناك على شكل حشود للترحيب به، وضموا كلاً من الذين كانوا مدرجين بين رجال الدين، الذين التفوا بأردية صوفية، وحملوا بأيديهم الكتابات المقدسة، والذين كانوا من العامة والناس العاديين، وقد غنوا بشكل جميل جداً، مزموراً نظمه ببراعة واحد

ممن كان بيننا، ونصه هو كما يلي: «أيها المولى، يامن ساعدت داوود المتواضع»، وهكذا، وبعدما مرّ الامبراطور بهذه المناطق، أسرع لعبور الدانوب، وذهب محاذياً لجزيرة كانت هناك(٢٥)، فقد عزم على الزحف نحو الداخل.

ثم إنه عندما كانت القوات الرومانية تعبر، حدث أن واحداً من القوارب، امتلأ حتى حوافه بالبضائع والسلاح وبأكبر عدد ممكن من الرجال،وعندما لم يكن بعيداً عن الشاطىء، جنح إلى أحد الأطراف، ولذلك تدفق الماء إلى داخله، أما بالنسبة لبقية الجيش الروماني من الذين صعدوا إلى السفن وكانوا محمولين على وجه النهر، والذين كانوا مايزالون واقفين على اليابسة، فإن بعضهم قد استولى عليه الخوف من الخطر، وبعضهم الآخر كان مهملاً، ولذلك أهملوا القضية، ولم يبق سوى القليل أمام السفينة حتى تغرق وتذهب إلى القعر مع جميع رجالها، لولا أن الامبراطور قفز إلى الماء، وقصد على قدميه نحو السفينة، وذلك في وقت كان فيه التيار يدور بعنف عظيم، وشكل بعضاً من الطين هناك، كان من الصعب جداً تجاوزه، وقد وضع الامبراطور كتفيه تحت المركب، وأوقف بذلك لحظة الخطر، وأعطى بذلك الفرصة للآخرين للقدوم لمساعدته، فقد خجلوا من غيرته، فذهبوا إلى مساعدة الذين كانوا وسط المصاعب، وأنقذوهم من الخطر، ولذلك حصل الامبراطور على احترام عظيم لانسانيته.

ثم إنه بعدما عبر الامبراطور الدانوب من مكان أكثر ارتفاعاً، أسرع نحو مدينة اسمها باغاتزيون Pagatzion [باكس أوبج] —وهذه المدينة هي مطرانية شعب سيرميون Sirmion ، وهناك يسكن أسقف الشعب— وجاءت حشود من السكان خارجة من المدينة للخدمة بمثابة حرس هناك(٢٦)، وهكذا عسكر هناك، لكنه علم في اليوم التالي أن ستيفن [الثالث] كان يقترب آنذاك، فاستعد فوراً

للمعركة، واستدعى واحداً من الرومان، كان يعرف اللغة التشيكية، فطلب منه أن يخفي نفسه ويتسلل إلى معسكر العدو، وعندما يصبح على مرأى من ملك التشيك أن يخاطبه كما يلي: «إلى أين أنت مسافر؟ أي حملة أنت قائم بها مع الجيش الذي تحت امرتك؟ أو انك لاتعرف أنك تتجرأ برفع يديك ضد الامبراطور العظيم؟ إنه مرعب بالنسبة لأي انسان أن يقف ضده في المعركة لأسباب كثيرة، دون أن نذكر أن مخاطرات المرء مزدراة من قبل هؤلاء الهنغار، الذين أعطوا بيلا ميراثه ثم أخذوه، لأنهم يعاملون أيمانهم وكأنها مزاح، فلو أن الانسان يتعامل مع فرد خاص، وحدث مثل هذا، بخرق اتفاقيته، هل يمكن أن يمر ذلك بدون عقاب بوساطة القانون، فهل ياترى يمكن للهنغار الذين عملوا ضد معاهداتهم مع مثل هذا الامبراطور، أن يبقوا بدون عقاب؟ لايمكن هذا، وعلى ذلك أوليست الحرب المثارة من قبل الامبراطور عادلة؟ إن نتيجة المعركة ستكون دوماً وفقاً للعدالة، وقدر هذا: إنك قدمت بمثابة عبد متشوق للقتال ضد سيد، وبمثابة عبد يحمل النير بدون إكراه، (وإذا لم يكن الأمر كذلك، سيكون من الطبيعي هناك سبب مثل الكراهية لسيد) وفي الحقيقة كتابع متطوع (ولاؤك [Lizion] يدلل على هذا) (٢٧) إذا كان ماصنعته في بيزنطة من قبل، عندما انطلقت إلى آسيا مع كونراد، إن لم يكن ذلك قد أفلت من ذاكرتك، وإذا كانت نتيجة الأمور متوقفة على قرارك، اختر ماسيكون مفيداً لك ولجميع التشيكيين، الأسف قادم، والمنافع بالعادة قليلة جداً لمن يمارسه».

هكذا تكلم، وأجابه فالديسلاف [الثاني] (كان هذا هو الاسم الذي أطلق عليه) (٢٨) حسبما يلي: «أيها السيد النبيل، نحن لم نأت إلى هنا لاثارة الحرب ضد امبراطور عظيم (ولا أن نكون بذلك متجاهلين لاتفاقاتنا نحوه) بل أتينا للدفاع عن ستيفن هذا الذي لحقه الضرر بشكل غير عادل من قبل عمه الشقيق، الذي كان قد طرده أولاً من

أرض آبائه ومن ميراثه، ثم إنه عندما استرد الحق إليه، هاجمه الآخر، وعزم على أن يستعيد بالقوة المنصب الذي كان قد فقده لسوء حكمه، ولهذه الأسباب جئت لأطلب من الامبراطور ولأرجوه في أن يقوم بحماية طفل يتيم، ولكن إذا كان تمّ صنيع شيء ما للاضرار بالامبراطورية من قبل ستيفن الأصغر (لأنني علمت أن مامن شيء من الأرض العائدة إلى بيلا نفسه قد استولى عليه) سنقوم بأنفسنا بعمل الوساطة ولسوف يقوم بالتنازل عن الأرض على الفور، ويجهد بكل سبيل بالعمل للتكفير عن أخطائه»، لقد كان هذا ماقاله، ثم أعاد الرجل.

وعاد الرجل إلى المعسكر الروماني، وأوصل إلى الامبراطور الجواب، واستمع مانويل إلى هذه الكلمات ليس بدون سرور، ومع ذلك لم يكن قادراً على تصديقهم كلياً، وشعر بالقلق خشية أن يكون فالديسلاف لم يكن قد عبّر عن نواياه الحقيقية، بل يوجد خلفهم شيئاً من الخيانة، فقام بارسال بعض أعوانه إليه، وأمر أن يتم تأكيد الاتفاقية بيمين، وقام الطرف الآخر بدون تردد بفعل ذلك على الفور، ولم يكتف بذلك، بل زاد التأكيد بأيمان اضافية على ماكان قد تعهد به من قبل، كما تقدم وذكرنا.

وبعد قليل بعث ستيفن رسلاً إلى الامبراطور، أعاد بوساطتهم الأرض، وطلب من الامبراطور ألاّ يسمح لعمه ستيفن [الرابع] القيام بمهاجمة هنغاريا(٢٩)، وقبل مانويل هذه الشروط، وبناءً عليه أنهى الحرب، وذلك بهدف الجواز إلى الأراضي الرومانية، ونصح ستيفن [الرابع] بمغادرة هنغاريا، لأنه علم من خلال التجربة بأن أبناء جلدته لايرضون به، لكن بما أنه لم يكن قادراً على اقناع الرجل قال له: «إنني الآن مغادر، فبعدما استرددت أرض بيلا، لم يبق من سبب مسوغ للصراع، إلا سبب غير عادل، واعلم أنك ستتعرض للخيانة على الفور لصالح أعدائك، وإذا ما كنت ترغب فإنني أبرهن لك وأريك الحقائق حتى أمام ناظريك، يوجد هنا ابن أخيك ستيفن، وهو مشابه لك تماماً بالمظهر، إلى حد أنه يصعب

على الـذين ينظـرون إليك عـن بعد تمييـز أحدكما عـن الآخر، قـم بعدمـا تلبسه سلاحك بـأمره بأخذ جيشك، والزحف ضـد الأعداء، وابق نفسك مختفياً في مكان ما هاهنا، وستعلم على الفور كيف سيعاملك الهنغار».

وهكـذا دخـل [ستيفـن الـرابـع] إلى إحـدى السفـن، وأقلـع دون أن يُلاحـظ إلى مكان ماعلى شـواطىء الدانـوب، بينما بادر ابن أخيـه ستيفن والهنغار من حولـه للاشتباك مع الملك ستيفن، ولكن حتـى قبل أن يواجه الجيشان أحدهما الآخر، بادر الهنغار الذين كـانوا مع ستيفن بإلقاء القبض عليه، وأسرعوا بتسليمـه إلى الملك على أنه ستيفن الأكبر، وانتهـت خطيئة الهنغار عند تلـك النقطة، لكن عندما علم الامبراطـور بهذا، أرسل ينصح ستيفـن [الـرابـع] قـائلا: «يكفـي أيها الـرجـل، وكما أنـه مـن الخطـر أن تنسحب بدون حاجـة، كذلك من الحماقة أن تكون جسـوراً بدون حاجة، تبصر أنك في مـرتين كنت قادراً على أن تعلـم كم من الشرور جـاءت من كـل منـاسبة، ولاتحاول مـرة ثـالثـة، أيها السيـد النبيل، لايمكـن بسرعـة اصلاح الأمور وتـرميمها حسبما ترغب». لقـد كان هذا ماقـاله الامبراطور لكن الآخر أجابه: «بدلاً عن ذلك، يشعر الهنغار الآن بالخجل، لانغماسهم بالخيانة»، وهكذا تبدلت الروح التـي استولت عليها الشهوة مرة، وأوقفت كل نقاش في اتجاهها.

وبعدمـا رفض قبول [المساعـدة] لهذه الأسباب، ترك الامبراطـور هناك نقفور كالـوفيس Chalouphes مع جيش لمصاحبـــة ستيفن، وليتولى معالجة كـل مايمكـن أن يحدث، وعاد هـو نفسه إلى الأراضي الـرومانيـة، وبعد مضي مدة وجيـزة [١١٦٤] علم الملك الهنغاري أن ستيفـن مايزال في هنغاريـا، فقام بجمع المزيـد من القـوات، وبادر مسرعاً لتقـدير مصير كـل شيء بوسـاطة القتـال، وحدث في الـوقت نفسـه أن عدداً كبيراً ممـن كانوا مع ستيفـن [الرابع] تخلوا عنه والتحقوا بالملـك، وهكذا تركوه مجرداً من كل جانب، وعندما علم كـالوفيس بهذا، عرض عليه خطة قضت أن

يقوم بمغادرة هنغاريا وأن يأتي إلى سيرميون، وبما أن تلك المنطقة كانت واقعة تحت سيطرة الامبراطور، فسيكون ممكناً له —كما قال— أن يقوم بما يريده دونما اعاقة، ولكن بما أن الرجل رفض بثبات، فقد خطط كالوفيس ونفذ الخطة التالية: لقد تظاهر أن رسالة وصلت إليه من الامبراطور، فزحف نحو الدانوب من أجل مقابلة الذين حملوا الرسالة إليه، والذين كانوا لخوفهم من الهنغار مقيمين في مكان ماعلى محاذاة الدانوب، وعندما وصل إلى هناك، عبر ومضى إلى سيرميون، وبعد وقت قصير وصل ستيفن إليه ملتجئاً وذلك بعدما كاد أن يؤسر من قبل الأعداء، وعندما سمع الامبراطور بهذا أرسل جيشاً معتبراً إلى سيرميون، لكي يتولى —من جهة— حماية المنطقة (لأنه عامل الهنغار بشيء عظيم من الريبة، وكان يخشى أن يثوروا ثانية)، ومن جهة أخرى بحجة تأمين الأمن لأتباعه، ولبذل الجهد في سبيل سلامة ستيفن، وقاد هذه القوة ميخائيل الذي كنيته غابراس(٣٠١) Gabras ، وبما أنه كان زوجاً لإحدى بنات أخيه فقد حمل لقب سيباستوس.

وحمل الامبراطور ذراع القديس بروكوبيوس، الذي كان قد أخذه من سيرميون، وأعاده إلى بقية الجسد في الكنيسة في نيسوس، وكانت هذه الذراع قد فصلت عن بقية الجسد منذ وقت طويل مضى للسبب التالي: كانت أمة الهنغار قد استولت مراراً على الأراضي الرومانية، وكان هؤلاء الهنغار قد استولوا على سيرميون قبل حكم ألكسيوس كومينوس بوقت قصير، وبعدما استعبدوا كثيراً من مدن الدانوب،وصلوا إلى نيسوس، فوجدوا هناك جثة الشهيد المقدس، وقدروا —كما أعتقد— أنه كان عملاً غير انساني القيام بحمل الجسد كله، ولذلك اكتفوا بقطع الذراع ومن ثم غادروا، وعندما وصلوا إلى سيرميون، تركوا الذراع هناك في كنيسة الشهيد ديمتريوس، التي كان قد بناها الذي حكم في متقدم الأيام مقاطعة اليركيوم Illyricum ، وعندما اكتشف الامبراطور

الـذراع هناك، حملهـا، وعاد بها —كماذكـرنا— مسرعـاً ليضمها إلى بقيـة الجسد.

٩- كانت هـذه الأشياء قد حدثـت وأنجزت من قبل الامبراطـور ضد الهنغار في ذلك العام، كما أنه أرسل ألكسيـوس ابن الدمستق [أكسوكوس Axouchos] الذي كـان —كما ذكرنا— قـد تولى مـراراً منصب البروتونوتاريوس Protonotarios ، أرسلة إلى كليكية، مع حملة معتبرة، وعيّنه قائداً عـاماً مسؤولاً عن الصراع هنـاك(٣١) [١١٦٥]، ذلك أن نـور الديـن أتابـك حلب، كـان قد ارتفـع شأنـه نتيجة الانتصـارات المتقدمـة، فبات يحدوه الأمـل في أن يسيطر حـالاً على أنطاكيـة، وكذلـك كان طـوروس المتسلط على الأرض هنـاك، قد استـولى غدراً على كثير مـن المدن الإيـزوريـة مما كـان خـاضعـاً للامبراطـور، ذلـك أنـه كان معـادياً لأنـدرونيكـوس يـوفـوربينـوس Euphorbenos ، ابـن عـــــم الامبراطور، الـذي كان آنذاك حاكماً لكليكيـة، فقد اتهمه طوروس بـأشياء كثيرة، ولامه بشكل خاص لقتله [١١٦٢] أخيه ستيفن [سديفان].

لقد كان هذا ماحدث هناك.

وكانت قـوة فردريك ملك ألمانيا تتقدم لحظـة فلحظة وتتصلب كثيراً، لأنه تدبـر أشياء كثيرة ومتنوعة في سبيل استقرار الـدولة، ولاسيما في سبيل تأمين المال، وهـو شيءلم يكن بالعـادة من قبـل، فقد استولى على ميـلانو، وهي مـدينة شهيرة [١١٦٢]، وهـزم أمة الليغـوريين أو اللومبـارديين، ثم تابع المزيد من التقدم، فزحـف إلى أقصى أجزاء الغرب، وهذا الذي كان من قبل غير قادر على الحاق الهزيمـة أثناء القتال بالذين كـانوا على مقربة منه، استطاع إثـر ذلك الاستيلاء على المناطق البعيدة كثيراً، فـأخضع روما نفسها في الحرب(٣٢)، ولهذا شعر الامبراطـور مانويل نفسه بـالقلق، وأخذ يبحث عـن الوسيلة التـي يوقف بها تقـدمه، خشية أن يجعلـه نجاح غير

متوقع يقدم على الالتفات ضد الأراضي الرومانية، التي نظر إليها منذ زمن طويل مضى بأعين جشعة، ولهذا أرسل سراً بعض الأشخاص غير المعروفين إلى الأمم هناك، وإلى المقيمين داخل خليج إيونيان Ionian [البحر الأدرياتيكي]، وأمرهم بتذكيرهم بجشع فردريك الذي لاينتهي، وليثيرهم لمقاومته، وبعث إلى شعب البندقية نقفور كالوفيس مع مال ليكسب مشاعر أولئك الناس نحوه، وليوجه الأمور هناك لصالح الرومان.

وكان فردريك بعدما أخضع روما قد أحدث تغييرات كثيرة، خاصة بازاحة الاسكندر [الثالث] عن عرشه، ذلك أنه كان الأسقف هناك، ووضع مكانه أوتافيانو(٣٣) Ottaviano وبذلك كان يمكنه —كما أعتقد— جعل نفسه مساوياً بالمرتبة امبراطور الرومان، لأنه مامن أحد —باستثناء امبراطور الرومان— مخول بتسمية أسقف لروما، وعندما أزيلت هذه العادة بسبب اهمال أباطرة بيزنطة، مامن واحد أقدم على إقامة أية أسقف في روما، بل كان ذلك يتم من خلال مجمع ديني خاص يضم حكومة الكنيسة وأعلى رجال الكهنوت رتبة [يعني الكرادلة] في روما، وكان فردريك، قد رنا بناظريه من قبل نحو منصب امبراطور، ولدى توليه تعيين الأسقف، بدا وكأنه يمتلك مسوغات هامة ومعطيات لنيل هذا المنصب، فلقد كسب إلى جانبه عدداً من الأساقفة، وظهر أنه مقبل على نيل ماأبدعه من خلال مجمع ديني، أما بالنسبة إلى الملوك الآخرين، فقد بدا هذا أمراً ليس مرضياً، لكن مامن واحد كان قادراً على مواجهة فردريك، الذي صعد إلى أعلى درجة من القوة، باستثناء أن الامبراطور كان قادراً على اعاقته بالمال وبطرق مبدعة أخرى لخدمة هذا الغرض، فقد أعاد تثبيت الاسكندر على عرشه، غير أن هذا حدث فيما بعد.

وعندما وصل كالوفيس إلى ايبيدامنوس Epidamnos ترك معظم المال الذي عهد به إليه هناك، ومضى إلى البندقية بوساطة سفينة، لاقت

ريحاً طيبة [حوالي١١٦٦]، وعندما جاء ليتحدث إلى الدوج في تلك المنطقة [فيتالي ميشيلي الثاني] وإلى بقية الأعيان وسط ذلك الشعب، خاطبهم قائلا:

«لايفكرن أحد أيها السادة أنني قدمت إلى هاهنا من عند الامبراطور خوفاً، أو خشية أن المشاعر الطيبة لديكم نحو الامبراطورية الرومانية يمكن على الاطلاق أن تتخلى عنها نباهتكم، فأنتم لستم أدنياء بمثل هذه الدرجة، ولاغير جديرين بأصلكم، ولم يخطىء الامبراطور في رأيه فيكم، لكن بما أنه —باستثناء الخاضعين لسلطانه— مطمئن تجاه حسن نواياكم، قرر أن يمدّ عواطفه الملكية الأمينة نحوكم، وبما أنه من العار استغلال الرعايا المزدهرين، ورفض انقاذ الذين يعانون من المصاعب، ولأنكم مع آخرين ممن يشارك في المشاعر الطيبة للامبراطور قد تعرضتم للخطأ من قبل فردريك، الذي لشدة رغبته بالسلطة قد جهد أن يغير بدون توقف ماتقرر منذ زمن بعيد وصار عادة، ولهذا أرسلني إليكم، كما ترون، لأزودكم بكل شيء يمكن أن ترغبوا بالحصول عليه منه، فبمساعدة الامبراطور توليتم بأنفسكم الصراع ضد فردريك في ميلان، وأنتم تعلمون كيف انتصرتم عليه، ولهذا بات يحمل الحقد على الامبراطور، وثقة منه في نجاحه غير المتوقع يطلب شيئاً غير لائق، إنه يطلب أن يحمل لقب امبراطور الرومان، وهو لايعلم أن نجاحات الحظ غير المتوقعة تتبدد بالعادة بسرعة وتختفي، لأنها لم تقم على قاعدة ثابتة، إن هذه هي الأسباب التي جئت من أجلها إليكم، ويتوجب عليكم مراعاة التنفيذ الفعلي لما وافقتم عليه مؤخراً عندما راسلتم البلاط الامبراطوري، فلقد قلتم إن مدن الليغوريين [أي اللومبارديين] المجاورة ستساندنا إذا جاء أحد من بيزنطة ليشارك في المهمة معكم، وهذا —كما ترون— قد وقع». هكذا تكلم نقفور، ورحب البنادقة بكلماته، وتعهدوا بتنفيذ كل شيء، وفي الحقيقة انضمت كريمونا وبادوا وكثير من المدن

الشهيرة الأخرى في ليغوريا إلى الامبراطور، وكان هذا ماأنجزه الامبراطور في ايطاليا، لكن ليس بشكل مكشوف، فقد كان مايزال يرغب في اخفاء كراهيته نحو فردريك.

١٠- واستولى [اسطفان الثالث] ملك الهنغار مجدداً على سيرميون وانتزعها من الرومان وتمسك بها، وادعى ملكية زيغمينون نفسها [١١٦٥]، وعندما علم الامبراطور بهذا كتب له كما يلي:

«أيها السيد النبيل، انك لاتتصرف بشكل عادل، فقد استخففت بالأيمان التي سلف أن أقسمتها لجلالتنا فيما يتعلق بسيرميون وأماكن أخرى، وخرقتها، (ويحتاج البرهان على ماقمت به إلى كلام طويل) وما لم تقم بالانسحاب بسرعة مما ليس عائداً إليك، فإنك لن تحقق شيئاً كثيراً بالاستيلاء على سيرميون لأنك سوف تعاني من ذلك قريباً، وذلك عندما تجتاح القوات الرومانية بلادك كلها من جديد بقوة السلاح، فهل نسيت كم من آلاف المرات قد انتزعت هنغاريا من أبيك، عندما تخاصم منذ زمن بعيد مع الدولة الرومانية؟ الاعتذار عما اقترف هو سبيل خلاصك: فكر بهذا وإلا فإنك لن تستفيد حتى من اعتذاراتك المتقدمة، وسيف العدالة التي شحذ من قبل خلال عدد كبير من السنوات تحول بالحقيقة لأن يكون مظلماً، خلال عدد مساو من السنوات، لكنني أعتقد أنه لايمكن للمرء أن يتجنب حده قبل الآخرين»، هكذا كانت كلمات الامبراطور وعباراته، لكن ستيفن أهمل هذه الكلمات، ورجع إلى الطريق نفسه، ولهذا استعد الامبراطور بكل وسيلة لقتاله، لابل حتى رغب في إعادة اعطاء العرش إلى عمه الشقيق ستيفن [الرابع]، وهذا أمر لم يفكر به من قبل.

ووصل بالحقيقة إلى دولة روسيا رجل اسمه مانويل، يعود بنسبه إلى الكومنيني [حوالي١١٦٥] ليذكر حاكمها بالاتفاقية التي كان قد عقدها

من قبل مع الامبراطور وأكدها باليمين، بالاضافة إلى لومه لصداقته مع ياروسلاف Iaroslav [أوسموميس Osmomys] حاكم غاليشيا، لأن ياروسلاف خرق تعهداته نحو الرومان في عدد كبير من المسائل، ولاسيما في استقباله أندرونيكوس والاحتفاء به بشكل ينم عن الصداقة، وعن أندرونيكوس هذا سوف نتحدث ملياً، فقد جاء إليه ملتجئاً بعد فراراه من السجن في القصر، حيث كان مسجوناً —كما أعتقد— لمدة تسع سنوات، وفيما يتعلق بالحقائق حول فرار أندرونيكوس، هذا ماسأحكيه الآن:

١١- وكان في وقت متقدم مضى قد فرّ من السجن بطريقة رائعة، لكن القدر كما أعتقد كان مايزال يتطلب العقوبة لما كان قد اقترفه، ووضع دون جهد هذا البائس في أيدي مطارديه، فقد روي أنه عندما وصل إلى نهر سانغاريوس Sangarios [ساكاريا Sakarya] اضطر بسبب البرد الشديد إلى الدخول إلى كوخ حقير، لكن مالبث أن لوحظ من قبل الرجال هناك، لأنه كان بطبيعته دائم الحركة، وبدا حاداً إلى حد ما ومخيفاً، وبسبب أن الحركة الداخلية ظهرت كما أعتقد، وباتت مسموعة في الخارج، قام الفلاحون بتطويقه، وعلى الرغم من انكاره وتأكيده أنه ليس أندرونيكوس، ربطوه وذهبوا إلى بيزنطة، وأخذوه معهم، ومرة ثانية تولت القيود والزنزانة حبسه.

ثم قام أخيراً بطبع المفاتيح على الشمع، وأرسلهم مع أحد المساجين إلى زوجته وابنه[١١٦٤]، وباستخدامهم لبعض المتآمرين الآخرين صنعوا المفاتيح من الحديد وأرسلوهم له، وبعدما استلمهم، وعند غروب الشمس، وهو وقت كان متفقاً عليه، وبعد أن انتظر غياب الحراس خرج، وكان هناك ساحة ما، لها سور، فهناك كان مسجوناً، وكان هناك، بحكم أن المكان نادراً ماطرق، بعض الأعشاب التي نمت بكثافة وطول شديد، فركض هناك، وخبأ نفسه مثل الأرنب، بإلقاء نفسه في أصغر

بقعة ممكنة، وبما أن الوقت بات ليلاً، كان على حرسه الليلي المعتاد القيام بتطويق السجن، وقام الذي عهد إليه من قبل الامبراطور بالاشراف على ذلك بمركزة الحرس، وهزّ بيده القضبان، حسب عادته اليومية قبيل ذهابه إلى الفراش، وكان هدفه تفقد الوضع ومعرفة فيما إذا كان أي تخريب قد وقع، وعندما لم يجد أي تخريب على الاطلاق، ترك المكان وذهب إلى النوم، وكان أندرونيكوس قد خشي أن يجد كلادون (كان هذا اسم الرجل) الباب مفتوحاً فيشرع على الفور بالبحث عنه، أغلق الباب وغادر بسرية وأمان.

وعندما حلّ منتصف الليل، ذهب إلى أقصى جزء من الساحة هناك، حيث نهاية السور المشرف عليها، ولم يكن السور مرتفعاً جداً هناك، بل مايكفي فوق الماء هناك، وكان البحر عندما يرتفع بقوة الريح غالباً مايضربه بمائه بعنف، وربط هناك حبلاً قصيراً وأمسك به وتدلى إلى الشاطىء، وهناك واجهه الحظ لوقت قصير بوجه عبوس، ثم ابتسم له وأطلقه وتعطف عليه، ذلك أنه كان خجولاً بعض الشيء، ويمزح كما هو واضح، فقد كان هناك واحداً من الحرس الذين اعتادوا على الاقامة في الأبراج،وكانوا يداومون الحراسة بالصراخ من أحدهم إلى الآخر بالتناوب مع التفوه بالكلمة المتفق عليها، فعندما رآه هذا الحارس اقترب منه وطلب منه أن يعلن عن هويته، فأجابه السجين بأنه كان واحداً من الذين يقفون في القصر عند الـ Papicas (٣٤)، لأسباب مالية، وقال له: «إذا تركتني أذهب، فهذا سيكون معروفاً وفضلاً منك نحوي»، وفيما هو يقول ذلك سحب التميمة من حول صدره وأراه إياها، وعندما رأى الآخر (الذي كان فلاحاً ويتصارع بشكل مستمر ضد حقائق الفقر) الذهب يلمع أمام عينيه، أخذ التميمة وترك أندرونيكوس يذهب، ووصل بالوقت نفسه إلى القارب الذي كان موضوعاً بالقرب من المكان، وكان معدّاً لنقله، وحملوه بالقارب، وأوصلوه إلى البيت، وهناك فكوا

القيود التي ربطت قدميه، ثم قام مجدداً بالصعود إلى ظهر سفينة، أقلعت به، وأبحرت إلى خارج الأسوار، وهناك وجد الخيول التي كانت معدّة من أجله، فامتطى أحدها وغادر هارباً، وهكذا بعدما هرب أندرونيكوس من السجن، مضى إلى روسيا، والآن ينبغي أن تعود روايتنا إلى موضوعها المتقدم.

١٢- وللأسباب السالف ذكرها جاء مانويل إلى بلاط بريميسلاف، وطلب منه قوات حليفة للرومان، لأنه بعث إليه وإلى روستيسلاف الذي كان أيضاً حاكماً في روسيا للبحث في عقد تحالف(٣٥)، وفي الحقيقة نجح في غرضه، وكانا على درجة عالية من السرور لأن الامبراطور استخدم مثل هذا الرسول وبعثه إليهما، وقد وعدا بتلبية كل شيء يطلبه الامبراطور، ولم يغفل الامبراطور بهذه المناسبة ياروسلاف [صاحب غاليشيا] بل أثاره للحرب ضد ستيفن بعدة وسائل وسبل، فقد كتب إليه كما يلي: «إننا لن نقلد انعدام عواطفك نحونا، باهمالك الشروط والمعاهدات التي أقسمت عليها من قبل، بل سأضع أمام ناظريك حقائق أذاه بسبب أنك تخاطر في أن تغضب وتثار إلى أقصى الدرجات، قدر أنك مزوج ابنتك إلى ملك هنغاري ضعيف الأخلاق ومريضها، وفي الحقيقة غير ثابت في أغراضه: فهو لايقدم أي احترام على الاطلاق للعدل والصدق، وأعتقد أن أي شيء يمكن بسهولة أن يصنع من قبل انسان مهمل بالطبيعة، ويعمل بشكل عام ضد القوانين، وبناءً عليه لن يتزوج ستيفن من ابنتك، ولن يفعل أي شيء قانوني نحوها، لابل حتى إذا تزوجها فإنه سيعاملها مثل إحدى الماشيات في الطريق، لأنه على هذه الصورة سبب المضار لجلالتنا، وبلا حياء لم يرع أياً من الأيمان التي أقسمها منذ زمن وجيز، بحجة المزاح، قدّر مايمكن أن يفعله لك من أعمال غير انسانية»، وأصغى بريميسلاف(٣٦) إلى هذه الكلمات بنوع من السذاجة البربرية، وكان على الفور عظيم الغضب، وقد عدّ صهره عدواً،

ووافق على مساعدة الرومان الذين كانوا يقاتلونه بأي طريقة ممكنة.

ويوجد في روسيا مدينة اسمها كييف، كانت متفوقة على كل مدينة موجودةهناك، وقد عدّت بمثابة عاصمة لاهوتية لتلك الدولة، وجاء إليها أسقف من بيزنطة، وكانت تدعي السلطة على البقية، لأنهم ألصقوا بها شرفاً خاصاً ومنزلة عالية، ووافق حاكم هذه المنطقة على مباشرة الحرب ضد ستيفن، وأكّد معاهدته بالأيمان(٣٧).

وفي الوقت الذي حدث هذا فيه، علم فردريك ملك الألمان، أن الامبراطور يعارض بشدة أعماله في الغرب، لذلك قرر ازالة خلافاتهما، وأقام سلاماً مع الرومان، واتفق هو شخصياً مع الامبراطور على اثارة الحرب ضد ستيفن، ولم يشأ هنري، الذي غالباً ماقلنا [كذا] أنه تزوج من ثيودورا ابنة أخي الامبراطور، أن يكون غائباً عن هذا الصراع(٣٨)، وكان هناك أيضاً جيشاً كبيراً من الكومان والصرب الذين كانوا من رعايا الرومان، وقام السلطان، طبقاً لموافقته بارسال قواته الحليفة، وهكذا تجمعت قوة جبارة من كل جانب.

وجاء في الوقت نفسه فالديسلاف —وكان من الشخصيات الرئيسة في روسيا— ملتجئاً إلى الرومان ومعه أولاده وزوجته وقواته كلها، وقد تمّ منحه ممتلكات على طول الدانوب، وهي الممتلكات التي سلف للامبراطور أن أعطاها إلى اللاجىء فاسيليكا بن جورج، الذي كان يتمتع بمكانة رئيسية بين الزعماء في روسيا(٣٩).

ووافق البنادقة أيضاً آنذاك على مساعدة الرومان باسطول فيه مائة سفينة حربية للصراع بالبحر، وبذلك جددوا معاهداتهم السالفة مرة ثانية، وبالاضافة إلى هذا قدموا تعهدات بالمحافظة على معاداة فردريك ملك الألمان وبقية المناطق الغربية طوال حياته إذا ماأثار الحرب ضد الرومان.

١٣- هكذا سارت الأمور فيما يتعلق بالغرب، وكان بلدوين [الثالث] ملك فلسطين الذي تزوج ابنة أخي الامبراطور(٤٠)، قد هلك وزال من بين البشر[١١٦٣]، ولأن حياته انتهت دون أن ينجب ولداً، انتقلت الملكية إلى أخيه [عموري الأول]، وفور اعتلائه العرش بعث إلى الامبراطور يسأل الحصول على عروس من بين الرومان، واستهدف بالوقت نفسه معرفة موقفه فيما يتعلق بالوضع في أنطاكية، وبحكم أن الانطاكيين كانوا بطبيعتهم خرقة للأيمان، قد عادوا إلى بلدوين في فلسطين، وتمكنوا بذلك وبتدبير أمورهم بأنفسهم وفق ارادتهم، تمكنوا من تأمين حكومة مدينتهم(٤١)، وكان عموري يعرف أن المدينة كانت خاضعة إلى الامبراطور، لذلك ارتأى أن يتعرف إلى الأمور منه أولاً، وقد أجابه مانويل كما يلي: «بالنسبة للطلب المتعلق باقامة وشائج القربى بالزواج، وبما أنك ترغب بالحصول على عطفنا، إن مطلبك سيلبى قريباً، لكن فيما يتعلق بمدينة أنطاكية، فقد كانت قديماً تابعة ضرائبياً إلى الرومان، وهي الآن خاضعة لجلالتنا، وسيكون من غير الممكن مادمنا أحياء بالنسبة لك أو لأي انسان آخر أن يمارس أية سلطةعليها، وعندما سيتلقى شعب أنطاكية العقوبة من جلالتنا بسبب كفرهم تجاه الرومان، سيعرفون وقتها مع من تجرأوا على الاختصام»، لقد حوت رسالته هذه المواصفات، وحيث أن عموري قد خاب أمله بالنسبة لأنطاكية، زاد بذلك من ضغطه في سؤال الامبراطور حول رباط زواج، وقام بعدما تزوج إحدى بنات [جون كومينوس] البروتوسيباتوس، بدوره أيضاً بالتعهد بالقسم إلى الامبراطور، مثلما فعل أخوه بلدوين من قبل.

وبما أن الامبراطور لم يكن قد أكمل بعد استعداداته للصراع الذي أمامه، خشي كثيراً على مدينة زيغمي Zeugme ، التي كانت محاصرة من قبل ستيفن [الثالث]، وأرسل قبل أن تنشب الحرب الشاملة في جميع المناطق، جيشاً متميزاً لمساعدتها، وكان تحت قيادة الأميرين

ميخائيل غابراس وجوزيف بريننيوس، وكان تحت قيادتهما آخرين من أكثر المتميزين بين الرومان، منهم جون الذي كنيته أنجيلوس، وكان رجلاً صاحب خبرة عسكرية، وجون ايسس [عيسى] (٤٢)، وهو تركي من حيث المولد، شارك الرومان في النشأة وطرائق الحياة، ورغبة من الامبراطور في ضمان المدينة أكثر، ملأ عدداً كبيراً من السفن بالجنود والمؤن، وأمرهم بالابحار عبر طريق الدانوب، بغية تزويد الشعب في داخل المدينة بالضروريات، وذلك حتى يتمكن هو نفسه من الوصول إلى هنغاريا مع الجيش كله.

وأضاع الهنغار كثيراً من الوقت حول أسوار [زيغمينون]، وبعدما حاولوها مراراً أدركوا أنهم كانوا يحاولون شيئاً مستحيلاً (لأن السفن الرومانية التي كانت راسية على مقربة من شاطىء نهر الدانوب، قدمت الكثير من المساعدات إلى الرومان في الداخل، يضاف إلى هذا أنها نقلت الرجال الذين عانوا من الجراح أثناء القتال، وعوضتهم برجال أصحاء الأجساد)، أما الهنغار أنفسهم فقد جمعوا عدداً من المراكب، وذلك قبل وصول قوة غابراس وبريننيوس إلى هنغاريا، وبادروا مسرعين مندفعين ضد السفن الرومانية بهدف اغراقها، وبالتالي الانتصار في المعركة بسهولة، ومع ذلك فقد تبرهن أنهم أقل شأناً بوساطة هذه المحاولة، وكانت سفنهم أقل سرعة من السفن الرومانية، لأنها لم تبن ببراعة، ولأنها تتسع بشكل غير اعتيادي في الوسط، وعندما انطلقت عبر النهر، قام الرومان الذين شكلوا نمطاً من صفوف الاقتتال، باعتراضها وسط المجرى، ورموها مراراً بالنار بوساطة النشاب، وقد أعاقها هذا، فبعض السفن دخلته المياه، وانسحب البقية إلى مقربة من شاطىء النهر وبذلك تجنب الخطر، لكن إحدى السفن، وكانت مليئة بالرجال الذين شغلوا مناصب قيادية بينهم، أصبحت فريسة للرومان عندما أصابوها بالنار الاصطناعية.

وبما أن الهنغار كانوا غير موفقين في هذه المحاولة، فقد تحولوا إلى شيء آخر، فقد أفسدوا بوساطة المال بعض الهنغار الذين خدموا ستيفن [الرابع]، وأقنعوهم بتقديم شيء مميت للرجل، ولذلك جرى الاستيلاء على المدينة، وغدت سيرميون مجدداً خاضعة للهنغار [نيسان١١٦٥]، ولم يتعرض الرومان والهنغار الذين كانوا في الداخل، والذين وقفوا إلى جانب ستيفن [الرابع] للأذى، لأنهم تخلوا عن المدينة بشروط على هذا الأساس، وبعدما انتصر الهنغار على جثة ستيفن، لم يقدموا للميت الطقوس المقدسة، ولم يروا أنه يستحق تقديم أي شيء قانوني آخر، وكل مافعلوه أنهم رموا الجثة أمام أبواب المدينة، وجرموها بابقائها غير مدفونة، ثم تحركوا فيما بعد بدافع طبيعي، فنقلوها إلى كنيسة الشهيد ستيفن، ووضعوها في قبر(٤٣).

١٤- عندما سمعت الامبراطورة بهذا، أصيبت بمرض خطير، أما هو نفسه فقد تجاوز ذلك كالعادة بحماس شديد، وانطلق نحو الحرب، ولدى وصوله إلى سرديكا، عاصمة الإليريين، جمع جيشاً هناك، وانطلق مع آخر أيام حزيران [١١٦٥] وذهب إلى الدانوب، وفيما هو ذاهب للجواز، عمل كما يلي: مركز الجزء الأفضل تسليحاً من جيشه والذي كان مستعداً للقتال أمام كرامون(٤٤) Chramon وهي مدينة هنغارية، معطياً بذلك توقعات بأنه سيقوم بالعبور من هناك، وبناءً عليه عندما لاحظ أن القوات الهنغارية تمركزت في الجانب الأقصى المقابل، انطلق إلى بلغراد، وقام عند الفجر بالابحار عابراً من هناك(٤٥)، وبذلك قسم العدو إلى عدة أقسام، ذلك العدو الذي خطط لمواجهته موحداً.

واستبد بالرومان حالة من الرعب الشديد، وهم يقومون بالعبور، ولدى ملاحظة الامبراطور نفسه ذلك، قام كما تجرأ غالباً من قبل، بدخول عبارة قبل الجميع وأسرع نحو الشاطىء الآخر، وبناءً عليه خجل الجيش الروماني لدى رؤيته اندفاع الامبراطور، فتابع السير نحو المراكب، وعندما

رأى الهنغار أن الامبراطور قد عبر، تخلوا عن تشكيلاتهم، وانسحبوا، ثم انه لدى رسو الامبراطور على الأرض العدوة قفز أكثر مما ينبغي (لأن عدم عمق الماء، لم يسمح للسفينة بالرسو على أرض جافة)، وتجاوز حده، فلوى إحدى رجليه بشدة، ولم يرغب في التخفيف من حماسه، بل سارع إلى إحدى فجوات النهر، حيث أمضى النهار متألماً، وازداد القسم المجروح من الرجل انتفاخاً وتورماً(٤٦).

وركض عدد كبير من البرابرة الذين كانوا متمركزين في زيغمي Zeugme وغادروا الأسوار، واتخذوا موقفاً أمام [الرومان]، لكن ما ان رأوا الامبراطور، حتى أسرع كل واحد منهم سابقاً الآخر بالفرار، وبشكل فوضوي وبصخب شديد اندفعوا مسرعين للدخول عائدين إلى المدينة، ولم يتجرأوا على الخروج منها، ثم استعد الرومان للحصار، وأنشبوا في اليوم الثالث القتال، وملأ البرابرة الذين دافعوا من فوق الأسوار الهواء بصراخهم، وبأصوات غير مميزة، واستمروا بالرمي وتلقي الرمايات، واستهلك بهذه النشاطات ذلك اليوم واليوم الذي تلاه، ولم يربح خلال ذلك لا الرومان ولاالهنغار، ولقد تملكتني الدهشة تجاه أشياء كثيرة صنعت أثناء هذا الحصار، وكان من الصعب عليّ تصديق التقارير التي تحدثت عن اقدام الامبراطور، لولا انني كنت حاضراً وشاهداً لما حدث، لأنه عندما بنى الرومان برجاً خشبياً، وعزموا على نقله نحو المدينة ليقاتلوا البرابرة المتمركزين فوق الأسوار يداً بيد، طلب أن يصعد البرج قبل بقية الرومان قائلاً: «أيها الرومان إنكم تستحقون شكري أكثر من أي انسان آخر، إذا لم تعيقوا صعودي»، ومع هذا لم تتحقق رغبته، فقد منعه القادة الرئيسيون الذين صحبوه بالقوة.

وقام بالدوران حول الأسوار، بحثاً عن مكان يكون مناسباً للهجوم، ونظراً لانعدام الحجارة أمر بطم الخندق الذي طوق المدينة، وكان عميقاً وعريضاً بالفضلات وأخشاب الحرق، وذلك بهدف تمكن الآلات الحربية

من العبور، لكن مامن شيء كان قد أنجز نحو السيطرة على المدينة، ذلك أن الهنغار، مع أنهم تعرضوا لضغط حاد من قبل العساكر الرومان، كانوا يصرخون أكثر من ذي قبل، وكانت لديهم آمال بأن الجيش الهنغاري الآخر كان على وشك الوصول إليهم.

١٥- وفي الوقت الذي كانت فيه الأمور معلقة على هذا الشكل، عاد الكشافة الرومان وجلبوا أخباراً تحدثت عن قرب وصول جيش كبير، وقد شوهد الغبار يتصاعد في معظم أجزاء الهواء، وأكد واحد من كبار شخصيات الهنغار، ممن التحق بالرومان واسمه فاساس(٤٧) Vasas، أن الملك الهنغاري لم يكن بعيداً، وهو يقود جيشاً يفوق الحصر، لاسيما بعدما التحق به الكومان وجيش روسي، بالاضافة —كما قال— إلى أن أمير التشيك قد عاد معه بكامل قواه، وعندما سمع الامبراطور بهذا، دعا إلى اجتماع ضم كبار الشخصيات، بهدف النظر في كيفية معالجة الوضع الحاضر، وقد خاطب المجتمعين قائلاً: «أيها السادة الرومان، إن النظام الطبيعي للأمور لايكفي بشيء واحد فقط، أي لايكفي أن يكون الانسان شجاعاً، بل ينبغي ألا يقاتل باندفاع أزمات لايمكن تجاوزها، وأعتقد بشكل خاص، أنه عظيم الأهمية بالنسبة للمرء أن يتعلم قليلاً فقليلاً السيطرة على الذات، ثم، بما أن تلك الدولة كانت ناجحة لبعض الوقت فيما مضى، بدوران غير متوقع للحظ، بشكل بات الأمر فيه صعباً بالنسبة للدولة الرومانية لمواجهته، علينا لهذا ألا نفكر أنه يكفي بالنسبة لنا اذا ماقمنا بالقتال فوق ترابها، بل علينا أن نستخدم ماهو موائم لكل مناسبة، وأن نقوم بالعمل الضروري والمفيد بالنسبة للحالة الحاضرة، ولاتفيد السياسات المعتادة ولاتناسب —كما أعتقد— للنجاح ولعدم النجاح، أما مايتعلق بالمملكة الرومانية —مع أنها لم تعد تتمتع بسعدها القديم الجيد— لكن (أقول بعون الرب) سوف تتمتع بحظ أعظم بفضل جهودنا كأبطال لها، وسيسيء إلى أمجادها اساءة تامة لدى تجنب

ملك الهنغار، الذي قيل إنه يقترب مع جيش محلي كبير، ومعه أكثر من ذلك قوات من المرتزقة جمعها بالمال، وعلى هذا إنه في سبيل الاحتفاظ بكل من الشهرة التي تحولت نحو الأحسن، والقوة التي ينبغي أن تنجو سالمة، علينا التشاور حول الجيد والممكن». لقد تكلم الامبراطور على هذه الصورة.

وارتأى بعض الرومان الذين كانوا بالاجتماع أن المناسب هو المغادرة والعسكرة عند سافا، حيث من هناك يمكن مواجهة الأعداء بدون خسائر، وكان آخرون غير مسرورين بذلك، وارتأوا أنه أفضل لهم ترك الحصار، والتوجه لمقاومة الأعداء الوشيكي الوصول، بكل قواهم، ولم يوافق الامبراطور على أي من الرأيين، ولذلك وصم أحدهما بالجبن، والآخر بالحماقة فقال: «من الممكن اننا عندما نترك الحصار أن تتشكل قوة أكبر من الحالية، مع مايكفي من المؤن، يمكن نقلها إلى الهنغار الذين يشكلون قوة الحامية في المدينة»، وبدا الأفضل له أن يترك الجزء الأدنى نشاطاً من الجيش مع قوات الحشم بعد تسليحها هناك قرب المدينة، تحت قيادة بعض الضباط غير المهمين، في حين تذهب بقية القوات معه نفسه لقتال الهنغار الآخرين، وبما أن هذا الرأي هو الذي أخذ به، استعدوا للانطلاق في اليوم التالي.

لكن عندما لم تصلهم أيه تقارير محددة، تسلحوا عند الفجر، وقادوا ثالث محاولة ضد المدينة، ومن جديد نشب القتال، ودافع الهنغار من فوق الأسوار عن أنفسهم ضد جيش الرومان بالحجارة والنشاب وأي شيء توفر لهم، وتمكن الرومان أكثر من قبل من لغم أساسات الأسوار، ودمروها ورموها بالحجارة من المنجنيقات، وكثيراً ماسمعت أصوات التشجيع والتحريض من على الجانبين، وكان هناك صراخ، وأصوات مرتفعة جداً، ثم سمع صوت هائل متميز، عندما لاحظ الهنغار أن بعض الرومان كان يستخدم عتلات عند الأساسات، فتصرفوا كما يلي:

كانت هناك حجرة كبيرة مرمية داخل الأسوار، فوضعوها فوق عوارض كبيرة من الخشب وربطوا حبالهم بالخشب، وسحبوها نحو برج خشبي صغير كانوا قد شيدوه فوق الأسوار، واستهدفوا من وراء ذلك رمي الحجرة على الرومان الذين كانوا هناك، وعندما وصلت الحجرة البرج لم يستطع تحمل وزنها (لأنها كانت كبيرة جداً)، وفجأة تحطم البرج الخشبي، وسقط نحو الأرض مع عدد كبير من الهنغار، الذين لم ينج واحد منهم من الخطر، ومرة ثانية ارتفع الصوت الهادي، وحمي وطيس القتال أكثر، ثم لاحظ الامبراطور أن واحداً من الرومان كان يرمي بشكل دقيق جداً، فركض نحوه، ورفع ترسه أمامه بهدف ابقاء الرجل وحمايته من النشاب.

١٦- وعندما لاحظ الهنغار أن أمورهم كانت بالفعل في وضع صعب، راسلوا الامبراطور وترجوه أن يقبل تنازلهم عن المدينة له شريطة مغادرتهم دون أن يلحقهم أذى، وقال بالبداية بالرفض حتى يقوم غريغوري وبقية النبلاء لديهم بربط حبال حول رقابهم وأن يقدموا إليه عراة الأقدام والرأس، وأعاد الرسل حاملين هذه الشروط، وزاد الروم من ضغطهم وقاتلوا بحدة أكبر حتى استولوا على المدينة، وبعدما باتت مُستولى عليها بالكامل، وصل غريغوري مع بقية قادة الهنغار إلى الامبراطور بحالة مزرية، تتوافق مع الشكل المطلوب، لابل جاءوه على شكل متسولين، وأتاموا مناحة، ورفض مانويل لبعض الوقت النظر إليهم، وعلى كل حال، تدخل بينلا فيما بعد، وبناءً على طلبه منع اعدامهم، غير أنه أرسلهم إلى السجن.

واندفع الرومان بغضب شديد إلى داخل المدينة، وذبحوا الناس هناك مثل الأغنام، مما جعلني أبكي تعاطفاً مع الحياة الانسانية، فكم من الشرور المؤسفة ربط هذا العرق نفسه بها عن طواعية، وحملت الأشياء الثمينة والثياب والمصنوعات الفضية، ونهبت بضائعهم، وقام حتى

المقاتلون العراة وغير المسلحين بحزم كل واحد منهم نفسه بسلاح العدو، ثم وجدت امرأة عجوز تعيسة، كانت مصابة بسهم خرق قاعدتها، فلماذا حدث هذا، هذا ماسأحكيه على الفور: عندما كانت المدينة غير مستولى عليها بعد، وقفت على أعلى الأسوار، ورمت بالقاذورات نحو الأسفل، وصدف انها سحبت ثيابها، ودارت حول نفسها، عارضة مؤخرتها على الجيش الروماني، وهي تغني ببعض التفاهات بلا نهاية، وفكرت في أن تلقي سحراً تربطهم به، غير أن واحداً من العساكر أطلق سهماً نحوها أصاب مؤخرتها ونفذ إلى المكان الموجودة فيه القناة التي تحمل البراز.

وشبيه بهذا، وجد واحد من الرومان كان يعاني من السجن، ذلك أنه مسجوناً في زنزانة سيئة وبلا ضوء للسبب التالي: عندما أخذه الهنغار أسيراً، ولأنه كان معروفاً ببراعته بالرماية، أرغموه على الرمي على الرومان من خلف السور، وكان هذا العمل مضاداً لرغبته، ومع ذلك سمح بذلك عن ذكاء، وعمل على ألا يصيب أحداً، وعندما لاحظ الهنغار هذا، ضربوا الرجل مراراً على ظهره، ووضعوه في سجن محكم الاغلاق.

وهكذا أخذت زيغمي ثانية، ووقتها عمل بعضهم أعمالاً شجاعة بارزة، غير أن أندرونيكوس لم يكن أقلهم(٤٨)، لأنه عندما رأى الرومان يتسلقون الأسوار بوساطة سلم، ذهب إلى أندرونيكوس ابن عم الامبراطور، وكان موضوعاً تحت قيادته، وذلك بعدما عاد هذا الأخير من روسيا واستقبل بكرم من قبل الامبراطور، وطلب أندرونيكوس من قائده أندرونيكوس أن يسمح له بمحاولة التسلق، وعندما سمح الأخير له، ذهب إلى هناك مسرعاً،وعندما حاول اللاتين الذين كانوا قادمين من الخلف جاهدين الذهاب متجاوزين له، اعترضهم بثبات، ولم يرغب أن يفقد فخاره، وبينما كان هذا يحصل، انكسر السلم بشكل مفاجىء، ووقع أرضاً، غير أن أندرونيكوس [دوكاس] تمسك بشجاعته المعهودة، ولدى

رؤيته بعض الرجال يعتلون سلماً آخر جلبوه، ركض وصعد عليه. وهكذا مضت الأمور هناك.

وكان الملك ستيفن [الثالث] قد وثق بأمن المدينة، (لأنه بالاضافة إلى أشياء أخرى كانت هناك قناة مغطاة تزودها بالماء من الدانوب، وكانت من قبل مكشوفة للهواء حتى وصولها إلى المدينة، ثم جعلت تحت الأرض من قبل الامبراطور، عندما كان متحالفاً مع ستيفن [الرابع] الأخير) ولم يصدق الملك خبر سقوط المدينة ولم يكن قادراً على تصور سقوطها بمثل هذه السهولة والاستيلاء عليها من قبل الرومان، وانتقل الامبراطور من هناك بسرعة، واسترد السيطرة على حصن آخر، أسكنه بسرعة كثيراً من الهنغار من سيرميون، ممن يعرف عادة باسم كاليسيو Chalisioi ، (وهم كما قيل هراطقة يجارون في عقيدتهم الأتراك ويوافقونهم)(٤٩١، وما ان علم [ستيفن] بالأمر الذي حلّ تماماً بمدينة زيغمي، حتى بعث رسلاً إلى الامبراطور، وكانوا رجالاً من الارستقراطية، ومعهم واحد ممن شغل منصب أسقف، ووافق على إعادة تسليم سيرميون إلى الرومان، وذلك بالاضافة إلى دلماشيا كلها.

وعندما رأوا الامبراطور، تلفظوا بما أمروا بالتلفظ به، وتعطفوا الامبراطور ورجوه الاقلاع عن غضبه، ورفض بالبداية قائلاً: «أيها الرسل، إنه بالحقيقة لأمر جدير بالتقدير، لو ظنّ حقاً أن هناك إعادة لهذه الأشياء التي سلبت من قبل، إننا الآن نمتلك سيرميون، وأعدنا الاستيلاء على زيغمي، كما اننا الآن سادة دلماشيا، نحن سادة هذه الأماكن كلها معاً، فالذي تريدون اعطاءه قد حرمتم منه، وبناءً عليه هل هناك سيرميون أخرى؟ أو هل هناك زيغمي أو دلماشيا أخرى، جئتم لاعطائنا؟!، إذا كان موجوداً، أرونا إياهما حتى نقوم بتسلمهما على الفور بأيدينا الفارغة، عارفين اننا لن نستطيع أخذهما وضمانهما بالنسبة لقوتكم (لأنكم لاتهتمون مطلقاً حول خرق القانون)، إننا —بفضل من الرب—

محتفظين بهما بوساطة قوتنا، مثل هؤلاء، وإذا كانت هذه الأشياء موجودة تحت سيطرتنا، فما من شيء قد بقي لتتحدثوا عن اعطائه، فحول أي شروط ستكون الاتفاقية؟، أو ما الذي سيكون هناك لتبادلونهم معنا؟»، هكذا أجابهم في البداية، ثم غير عقله وقال: «لكن عليكم بعد هذا أن تعلموا أننا نرغب في أن نقيم سلاماً معكم بمثابة هدية منا إليكم، لأنكم مسيحيين، اقدموا، وأقسموا»، وكان هذا ماقاله الامبراطور، وبعدما أقسموا حول كل شيء، غادروا، ثم عاد الامبراطور إلى بيزنطة(٥٠).

١٧- وسلم جون دوقاس، الذي أخضع دلماشيا، هذه البلاد إلى نقفور كالوفيس، وكان ذلك بناءً على توجيه من الامبراطور، وقد تقدم لمانويل ارسال [دوقاس] إلى هناك مع عساكر للاستيلاء عليها إما بالقوة أو بالاتفاق، وذلك بسبب أن الهنغار كانوا قد عينوا هذه البلاد بواسطة المعاهدة وجعلوها ميراثاً لبيلا، ولدى مروره ببلاد الصرب خرقها، وفي مدة وجيزة تحولت سلطات البلاد كلها إلى أيدي الامبراطور، ومدّت فوقها بالكامل، ثم أصبحت تروغير Trogir وسيبنيك Sibenik تحت السيطرة الرومانية، وذلك بالاضافة إلى سبلت Split ودولة كاتزيكوي Katzikoi وديوكليا Dioklieia، وهي مدينة مشهورة سلف أن بنيت من قبل الامبراطور الروماني ديوكليشيان Diocletian، وكذلك سكرادين Skradin وأوستروفيكا Ostrovica وسولين So-lin، والمدن الأخرى كلها القائمة في دلماشيا، وكان عددها كلها سبع وخمسين مدينة. على هذه الشاكلة سارت الأمور في دلماشيا.

وعاد الامبراطور —كما قلنا— إلى بيزنطة، فقاد موكب نصر من القلعة حتى كنيسة آيا صوفيا الكبيرة، واحتفل هناك بالصلوات والشكر، وأتحف رجال الكهنوت بشيء من الذهب وصل من الجزية التي أرسلت إلى الرومان من سيرميون، وإثر هذا استراح بالقصر، وكاد يفوتني أن أذكر، أن

عربة موكب ذلك النصر كانت قد صنعت من الذهب الخالص، وكان من المفترض أن يركب بها الامبراطور، لكنه لم يركب، جزئياً بسبب عدم رغبته بالتباهي ولتواضعه، ومن جانب آخر بسبب انه عندما جلبت الخيول التي كانت ستجر العربة، وربطت بالمقاود كانت جموحة جداً، وخشي من خطر انقلاب العربة.

ولم يمض وقت طويل حتى علم [مانويل] أن كل من الصرب ودولة الهنغار كانا ثانية يجهدان [في سبيل الثورة]، لذلك بادر مسرعاً إلى هناك لاستباق القتال، لكن ما إن سمعوا بقدوم [مانويل] حتى أقلعوا عن أعمال العدوان، وحافظوا على المعاهدات بشكل تام.